مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 5 (رت 74) السنة: 2023

المستكشفون الأوربيون في منطقة توات خلال القرن التاسع عشر (الدوافع والعراقيل)

European explorers in the Tawat region during the nineteenth century (motives and obstacles)

عبد المالك طاهري[1]
جامعة أحمد دراية، أدرار
مخبر الخطوطات الجزائرية في إفريقيا
abdelmalek.tahri@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الوصول 2023/04/17 القبول 2023/07/13 النشر على الخط 2023/09/15
Received 17/04/2023 Accepted 13/07/2023 Published online 15/09/2023

ملخص:

تكمن أهمية هذه الدراسة في التعرف على المستكشفين الأوروبيين داخل الصحراء الجزائرية، وفي منطقة توات بالضبط خلال القرن التاسع عشر، من خلال التركيز على الدوافع التي حفزت المستكشفين والصعوبات التي واجهتهم، وقد اختلفت دوافع الرحلات الاستكشافية فمنها العام المرتبط بالتطورات الحاصلة في أوروبا مثل الثورة الصناعية وانعكاساتها وظهور الجمعيات وتنامي التوسع الاستعماري، ومنها الخاص المتعلق بالمستكشفين أنفسهم كالمغامرة وارتياد المجهول والبحث عن الثراء، وأهم هؤلاء المستكشفين " غوردن لانج " و"رونييه كاييه" و" لويس دو كلومب " و" جيرهارد رولفس " و" بول صولييه " وغيرهم. وقد واجه هؤلاء المستكشفون جملة من العراقيل والصعاب وهم يحاولون الوصول إلى المنطقة، منها ما هو طبيعي مرتبط بالموقع ومعالم السطح والمناخ القاسي، ومنها ما هو ثقافي بشري مرتبط بالدين واللغة مما جعل الكثير منهم يتظاهرون باعتناق الإسلام مدَّعين بأنهم من أصول عربية إسلامية.

الكلمات المفتاحية: الصحراء الجزائرية، توات، المستكشفين، الدوافع، العراقيل.

Abstract:

The importance of this study lies in identifying the European explorers inside the Algerian desert, and in the Tawat region exactly during the nineteenth century, by focusing on the motives that motivated the explorers and the difficulties they faced. And the emergence of associations and the growth of colonial expansion, including those related to the explorers themselves, such as adventure, exploring the unknown, and searching for wealth, and the most important of these explorers are ″Gordon Laing″, " René Caillié ", " De Colomeb Louis ", " Gerhard Rohlfs ", " paul solleillet ", and others. These explorers faced a number of obstacles and difficulties while trying to reach the region, including what is natural related to the site, features of the surface and harsh climate, and what is cultural and human related to religion and language, which made many of them pretend to convert to Islam, claiming that they are of Arab and Islamic origins.

Keywords: *Algerian desert, tawat, explorers, motives, obstacles.*

[1]– المؤلّف المراسل: عبد المالك طاهري البريد الإلكتروني: **abdelmalek.tahri@univ-adrar.edu.dz**

1. مقدّمة:

مع حلول القرن 19م ازداد الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية، وذلك بعد أن استنفذت أوروبا جميع الوسائل في كسب مناطق استعمارية جديدة، فحظي هذا القرن بحظ لا بأس به من الرحلات الاستطلاعية والبعثات الاستكشافية الأوروبية خاصة الفرنسية للصحراء الجزائرية ومنها منطقة توات، حيث كثفت فرنسا البعثات الاستكشافية إلى مناطق الصحراء الجزائرية ومنها منطقة توات لتدوين كل صغيرة وكبيرة عن المؤهلات الطبيعية والاقتصادية والبشرية للمنطقة. ومنه نطرح الإشكال التالي: ما هي الدوافع الحقيقية لاهتمام الأوروبيين بمنطقة توات في القرن 19م؟ وفيما تمثلت العوائق التي واجهتهم؟

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على منطقة من مناطق الجزائر وهي منطقة توات في القرن التاسع عشر، من خلال التعرف على أهم المستكشفين الأوروبيين الذين وطئت أقدامهم هذه المنطقة قبل احتلالها من طرف الاستعمار الفرنسي نهاية القرن التاسع عشر، مع تتبع مسارات هؤلاء المستكشفين، وإبراز دوافعهم الحقيقية في ذلك، والوقوف على أهم العراقيل التي واجهتهم خلال رحلاتهم الاستطلاعية بالمنطقة.

لدراسة موضوع البحث ونظراً لطبيعته اعتمدت على المنهج التاريخي الوصفي، لوصف وسرد الأحداث وربطها بالسياق التاريخي الذي حدثت فيه، مع الوقوف عند أهم الأفكار التي تكمّل عملية هذا الوصف.

2. لمحة مختصرة عن منطقة توات:

تقع توات غرب الصحراء الجزائرية، التي هي جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى، وتبعد أقرب نقطة عن العاصمة الجزائرية ب1500كلم، تتربع على مساحة تصل 427963 كم^2، وتشمل هذه المنطقة على عدد من الواحات والمدن والقصور، تزيد عن 350 واحة متناثرة[1]، وتمتد فلكياً بين خطي طول01درجة شرقاً و04 درجة غرباً، وبين دائرتي عرض 26 درجة و30 درجة شمالاً[2]، ويحدها من الجنوب صحراء تانزروفت، وواد قاريت و جبال مويدرا، و من الشرق العرق الشرقي الكبير، وغرباً واد الساورة وروافده، وتنقسم توات إلى ثلاث جهات محلية متباينة هي:

- منطقة قورارة وتمتد من تبلكوزة إلى تسابيت، وعاصمتها تيميمون.
- منطقة توات الوسطى وتمتد من تسابيت إلى رقان، وعاصمتها تمنطيط ثم تيمي ثم أدرار.
- منطقة تيديكلت وتمتد من رقان إلى فقارة الزوى، وعاصمتها عين صالح.

وتقع توات في عمق الصحراء ضمن مظهر تضاريسي تغلب عليه الرمال، ويتميز مناخها بالجفاف وشدة الحرارة صيفاً والبرودة القارسة شتاءً، والأمطار فيه شبه معدومة، وأما رياحه فالغالب عليها رياح الشهيلي والرياح الجنوبية الشرقية "sirocco"،

[1] فرج محمود فرج، إقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص12.

[2] محمد حوتية، توات والأزواد خلال القرنين 12 هـ و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر،2007، مج01، ص2.

أما الغطاء النباتي فيميزه زراعة النخيل المنتشرة بشكل واسع، لتحملها الحرارة الشديدة، والنباتات الشوكية، كما تتوفر على الثروة الحيوانية المتمثلة في (الماعز والأغنام والجمال)[1].

لقد وردت عدة روايات حول تسمية توات، وتضاربت الأقوال بين الرواية المؤسسة على أساس علمي يعتمد على التحليل المنطقي لأصل التسمية، وأهم هذه الروايات رواية أبي عبد الله الأنصاري صاحب كتاب "فهرست الرصاع" الذي يرى أن توات اسم أمازيغي، لأحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين، سكان الصحراء، أما عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب "تاريخ السودان" يرى أن التسمية ترتبط بقصة سلطان مالي "كنكان موسى"[2] في رحلته إلى الحج، حيث أنه مر بالمنطقة فأصابه وجع في رجله وكان تعليل السعدي أن ذلك في لغة "سنغاي" تعني توات.

أما مارتان (Martin) فيرى أن كلمة توات تعود في أصولها إلى كلمة "ouasis" الإغريقية[3]، وتعني الواحة، وهي مركبة من مقطعين، "ou" الذي يتطابق "oua" الأمازيغية الذي مفرده يتم بإضافة الحرف الأمازيغي" ث"، أي "t" لطرفي المفردة "oua" على لهجة زناتة، فتصبح،"touat" بمعنى الواحة في اللغة الأمازيغية. وإلى ذلك يذهب روكليس (Roclesse) ومندوفيل (Mandoveil) حيث أخذ الأول برواية مارتان، الذي اعتبر" توات "كلمة أمازيغية على لهجة زناتة. بينما ذهب الثاني إلى اعتبار أن المصطلح أمازيغي ولكن على لهجة صنهاجة، كما أنها لا يعني الواحة[4]، وإنما أطلقه توارق صنهاجة على المنطقة الممتدة على طول واد مسعود، الذي هو امتداد لواد الساورة.

في حين يذهب محمد بن عومر البداوي إلى أن عقبة بن نافع الفهري عند غزوه بلاد المغرب، وأثناء عودته بواد نون ودرعة وسجلماسة، ولما وصلت خيله توات سنة62 هـ/681 م، سألهم عن هذه البلاد (أي توات)، هل تواتي لنفي العصاة الخارجين عن سلطته؟ فأجابوه بأنها تواتي، فأنطلق اللسان بذلك. أما محمد بن عبد الكريم البكراوي فقال أن القائد علي بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن، كانا يقبضان الأتوات على أهل توات عام 595هـ/1169م فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فصارت تدعى توات. وأما رواية مولاي أحمد الإدريسي الطاهري فتتوقف عند المعنى اللغوي الظاهري، على أن المنطقة كانت تواتي للعبادة[5].

---

[1] CAMBON Juiles, Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouestafricain LES OASIS DE L'EXTREME-SUD ALGERIEN, Paris, 1897, p127.

[2] كنكان موسى: سلطان مالي من أعظم السلاطين اشتهر برحلته إلى الحج، حكم في الفترة مابين (738هـ/742هـ)، (1337م/1341م) وهو من ابرز الشخصيات التاريخية في أسرة كيتا. يُنظر: حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، 2003، ص07.

[3] Martin A.G.P, Les oasis sahariennes, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger, 1908, p115.

[4] Mario vivarer, Au Sujet du Touat, librairie Michel Ruff, Alger, 1896, p03.

[5] مولاي احمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تح: مولاي عبدالله الطاهري، د.ن، الجزائر، 2010، ص57.

أما أحدث دراسات الإتيمولوجيا (l'étymologie) الجزائرية، التي فككت الجذر "aua-w" فترى أن كلمة توات في اللغة الأمازيغية تطلق على الأماكن المنخفضة، فتوات الجسم مثلاً هو الجزء الداخلي الذي يقع تحت القفص الصدري، كما أن ثنايا أمعاء الحيوان يطلق عليها توات[1].

وعليه فإن الأرجح في رأينا أن المصطلح يعود إلى فترة غلبة قبائل أمازيغ صنهاجة وزناتة على المنطقة، أما قبل ذلك فقد يكون له اسم على لغة الجيتول قدماء التوارق والليفيتاي، الذين غلبوا على الإقليم قبل صنهاجة وزناتة، وليس أدل على ذلك من أن أسماء القصور اليوم معظمها أمازيغية صنهاجية زناتية، وعليه فمادام الفرع صنهاجية زناتية، فالأولى الأصل(توات)، أن يكون أمازيغياً بلهجة توارق صنهاجة أو زناتة.

3. دوافع الاستكشاف الأوروبي لمنطقة توات:

استهوت الصحراء الجزائرية المستكشفين والمغامرين الأوربيين مطلع القرن التاسع عشر وأسالت لعابهم، وأصبحت منطلقاً أساسياً في استراتيجيه القوى الأوروبية لاستكمال تحقيق حُلمها القديم والداعي إلى تكوين إمبراطوريات استعمارية، بدءاً من شمال إفريقيا مروراً بالصحراء ووصولاً إلى غرب إفريقيا، ولقد اختلفت دوافع الرحلات فمنها العام المرتبط بالتطورات الحاصلة في أوروبا مثل الثورة الصناعية وانعكاساتها وظهور الجمعيات وتنامي التوسع الاستعماري، ومنها الخاص المتعلق بالمستكشفين أنفسهم كالمغامرة وارتياد المجهول والبحث عن الثراء. ويمكن تحديد أهم أسباب ودواعي الرحلات والبعثات الاستكشافية إلى توات فيما يلي:

1.3. الدافع العلمي: يبدو الدافع العلمي لجمع كم هائل من المعلومات حول الجوانب الإنسانية والعلمية للمنطقة من أبرز المحفزات للمستكشفين، حيث كان الهدف الأساسي من إرسال بعثات استكشافية أوروبية للمنطقة هو التعرف على هذا المحيط الواسع والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء هنا وهناك، ومحاولة التعرف على الإمكانات الاقتصادية والبشرية لاستغلالها واستثمارها، ومحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية والطبيعة والمناخية والطبوغرافية والطاقة المائية الجوفية، ودراسة المجموعات السكانية وعاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[2]، بالإضافة إلى شق الطرقات ومد السكة الحديدية، حتى يسهل على الدول الأوروبية التوسع جنوباً.

2.3. الدافع الاقتصادي: كان الدافع الاقتصادي لاكتشاف المنطقة واضحاً، حيث تفطنت أوروبا إلى ما تحويه الصحراء من خيرات وثروات ورغبتها في اكتشاف عالم جديد (عالم ما بعد الصحراء الجزائرية)، وحاولت الاهتمام بالتجارة الصحراوية ووضع يديها على أهم طرق القوافل التجارية المؤدية إلى السودان الغربي[3]، حيث كانت توات تمثل نهاية قوافل حوض البحر الأبيض المتوسط وبداية قوافل غرب إفريقيا وتشكل ممراً طبيعياً، فظهر الصراع بين القوى العظمى لوضع خطط مستقبلية في الصحراء، ومن

[1] أحمد بوساحة، أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص79.

[2] إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة الاستكشافية في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص289.

[3] عبد القادر مرجاني، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مجاود، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2019/ 2020م، ص15.

الأطراف الفاعلة نجد ألمانيا وبريطانيا وفرنسا حيث ظلت هذه الأخيرة المنافس العنيد لنشاط الإنجليز وتوسعهم الاستعماري خارج أوروبا[1].

3.3. ظهور الجمعيات الجغرافية: لم ينطلق الأوروبيون من فراغ، فقد تأسست عدة جمعيات خلال القرن التاسع عشر كان لها دورٌ كبيرٌ في دعم واحتضان المستكشفين، من خلال تقديم التمويلات اللازمة لبعض المستكشفين والرحالة وتخصيص الجوائز المالية لمن يسبق إلى اكتشاف منطقة ما، فضلاً عن تزويدهم بالتوجيهات والإرشادات اللازمة والأدوات العلمية الضرورية[2]. وأهم تلك الجمعيات التي ظهرت في أوروبا خلال هذا القرن: "الجمعية الألمانية للدراسات الإفريقية" سنة 1878م، و"الجمعية الجغرافية الملكية بلندن" سنة 1830م، "الجمعية الجغرافية بباريس" سنة 1821م، و"الجمعية الانثربولوجية بباريس" سنة 1859م، وجمعيات جغرافية أخرى في مدينة ليون 1873م، وبوردو 1874م، ومارسيليا 1876م، وليل 1882م، وأنشأ الفرنسيون "جمعية جغرافية في الجزائر" سنة 1879م، حيث أنشأت فرنسا خمس عشرة جمعية في الفترة الممتدة بين 1873- 1882م[3].

4.3. صدور المجلات: كانت تلك الجمعيات تتلقف تقارير ورحلات المستكشفين، وتسارع إلى نشرها في المجلات المتخصصة التي كانت تصدر في ذلك الوقت، وأهم المجلات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر "المجلة الجغرافية الباريسية" سنة 1821م، ومجلة "حول العالم" التي بدأت في الظهور سنة 1843م، وأخذت تسميات متعددة على مدار القرن، حيث أصبحت تسمى "المجلة الاستعمارية" بين سنتي 1859و 1860م، و"المجلة البحرية" سنة 1896م، وقد أصدرت غالبية الجمعيات الجغرافية مجلات خاصة بها[4].

5.3. الدافع الاستراتيجي في المنطقة: احتدم الصراع بين القوى العظمى لوضع خطط مستقبلية في الصحراء، ومن الأطراف الفاعلة نجد بريطانيا وفرنسا حيث ظلت هذه الأخيرة المنافس العنيد لنشاط الانجليز وتوسعهم الاستعماري خارج أوروبا، والبحث عن مجال حيوي في قارتي إفريقيا وآسيا، كل ذلك جر الفرنسيين إلى أسلوب الاستكشاف والمغامرة والبحث لخدمة منظومتهم الاستعمارية، وهو ما عبر عنه وزير الحربية الفرنسي "مارشال سولت" بقوله: " لا يجب إهمال الصحراء الجزائرية وذلك لما تقدمه لنا من ثروة، والتي تعطي لنا بعداً ضرورياً وسياسياً وتجارياً، ويجب أن يسود حكمنا فيها...حيث لا يمكن فتح علاقات تجارية من داخل إفريقيا إلا عن طريق السيطرة والهيمنة"[5].

---

[1] محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص142.

[2] محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن 19م (قراءة في الرحلات الاستكشافية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001م، ص88.

[3] إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 101.

[4] الطاهر موساوي، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، رسالة ماجستير، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بشار، 2011/ 2012م، ص22.

[5] أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص35.

6.3. الدافع العسكري: بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م ظهر الدافع العسكري ضمن برنامجها التوسعي الاستعماري، فقد أدركت السلطات الفرنسية أن الجنوب الجزائري يعد حجر الزاوية لاستكمال مشروعها الاستعماري، حيث أن الثورات التي كانت تندلع في الشمال كانت تجد في الجنوب والواحات عند فشلها معقلاً يفر إليه المجاهدون ليستعيدوا الكرة للهجوم مرة أخرى على الفرنسيين، وعلى هذا الأساس كان لابد على الفرنسيين من إخضاع كل المناطق الصحراوية المتبقية، إلى جانب رغبة فرنسا في استئصال الثورات الشعبية التي كانت تندلع في المنطقة، ومن أهم الثورات التي امتدت في توات ثورة أولاد سيدي الشيخ 1871م[1]، ولما زار الرحالة الألماني "جيرهارد رولفس" المنطقة سنة 1864م، وشاهد بنفسه مدى فعالية ومشاركة أهل الجنوب للشمال أوصى السلطات الفرنسية بنقل حدودها إلى نهاية وادي الساورة، وأنهم لن ينعموا بالهدوء ما لم يستولوا على تلك المنطقة[2].

7.3. التوسع الاستعماري: كان حلم الفرنسيين التوسع بأقل التكاليف العسكرية والمادية في المنطقة، حيث أن تمكنهم من فرض سيطرتهم على الصحراء الجزائرية سيكون وسيلة لفرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم الإفريقية، وهو ما صرح به النقيب هنري وولف (henri wolff) سنة 1844م بقوله: "لن تكون مستعمراتنا الإفريقية هادئة حقيقية إلا حينما يرفرف العلم الفرنسي في الصحراء الكبرى على قصر عين صالح"[3]، حيث بدأت فرنسا تكثف من دراستها لهذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والاقتصادية والمائية. وقد لخصت بعثة فلامون (Flamand) المرسلة إلى منطقة تيديكلت سنة 1899م الدوافع التي جعلت فرنسا تسعى للسيطرة على الصحراء الجزائرية، فكتب فلامون يقول: "من المهم ومن دون تأخير ربط واحة عين صالح بالجزائر العاصمة، وهي الوسيلة العملية الوحيدة للاستعمار وأيضا لكي لا تكون هذه المنطقة ملجأ دائم لإثارة الاضطرابات"[4].

8.3. دوافع خاصة بالمستكشفين أنفسهم: اختلفت الدوافع الخاصة بالمستكشفين أنفسهم باختلاف أصحابها والجهات التي تقف وراءهم، فهناك من كانت تدفعه دواعي دِينية للقيام برحلته واضعاً على عاتقه التبشير بعقيدته عبر المزيد من البقاع المكتشفة، ومنهم من كان يقوده الفضول المعرفي وخدمة العلوم والجغرافيا إلى محاولة ملء الفراغات التي كانت آنذاك تميز المناطق الداخلية من القارة الإفريقية، وهناك من كانت تدفعه المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب والخروج عن المألوف، ومنهم من كان يحركه البحث عن مصادر الثروة والمال ويدفعه السعي إلى تحصيل المكاسب المادية من وراء المتاجرة أو للحصول على جائزة، ومن بينهم من كانت تغريه نُزعَة سياسية استعمارية فيسعى إلى ارتياد مناطق جديدة خدمة لتجارة بلده أو سعياً إلى جمع المعلومات

---

[1] ثورة أولاد سيدي الشيخ: من أشهر المقاومات الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، امتدت مابين 1864- 1881م، تولى قيادتها قبيلة أولاد سيدي الشيخ بفرعيها الشرقي والغربي، ومن أشهر قادتها السي سليمان بن حمزة والسي محمد بن حمزة والسي لزرق بلحاج...، شملت الثورة عدة مناطق في الصحراء الجزائرية، وانضمت إليها عدة قبائل من الجزائر، استمرت لمدة طويلة حيث تعتبر أطول مقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر. ينظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1980م، ص ص140- 150.

[2] إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م، ص77.

[3] أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- 1902م، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، ط1، 1988م، ص85.

[4] عبد القادر مرجاني، المرجع السابق، ص14.

المختلفة عن المناطق المزُورَة، تمهيداً للسيطرة عليها وإخضاعها تطبيقاً للمقولة الشهيرة "يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم"[1].

4. أهم البعثات الاستكشافية لمنطقة توات في القرن 19م:

تعدَّد المستكشفون للمنطقة من جميع أنحاء أوروبا وتباينت جنسياتهم، وأمام كثرة الرحلات الاستكشافية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر في الصحراء الجزائرية سنقف على أهم المستكشفين الذين وصلوا منطقة توات أو مروا من خلالها واستطاعوا العودة إلى بلدانهم وسجلوا وصفاً عن المنطقة في مؤلفاتهم، سواء كانوا مبعوثين من طرف حكوماتهم أو مغامرين، وسواء كانوا عسكريين أو مدنيين، وذلك حسب التسلسل الزمني لهذه الرحلات، وقد كانت بريطانيا سبَّاقة في ذلك سنة 1825م، لكن سرعان ما تزعمت فرنسا زمام الاستكشاف في المنطقة خاصة بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م.

1.4. غوردن لانج Gordon Laing:

مستكشف اسكتلندي، اشتهر برحلاته الاستكشافية داخل إفريقيا، يعتبر أول مستكشف أوروبي تطأ أقدامه أرض توات خلال القرن التاسع عشر، توجه بأمر من وزير المستعمرات البريطانية "اللورد باترست" (Lord Bathurst) لاكتشاف تمبكتو عن طريق طرابلس، فغادر لندن في فبراير 1825م إلى طرابلس التي دخلها في 14 جويلية، وبها تزوج إبنت القنصل البريطاني "وارنجتون" (waringhtun)[2]، وبعد يومين ترك زوجته وتوجه إلى غدامس التي وصلها في سبتمبر، ومنها توجه إلى عين صالح التي دخلها في ديسمبر وقام بعدة جولات بالمنطقة ليغادرها في 10 جانفي 1826م متوجهاً عن طريق أقبلي نحو تمبكتو فوصلها يوم 18 أوت 1826م، وغادرها في 22 سبتمبر لكونه مسيحياً غير مرغوب فيه، وفي الطريق اغتيل بـ "أروان" قرب تمبكتو يوم 26 سبتمبر 1826م، وتم حرق جميع أوراقة ومذكراته[3]. ولم يبقى بين أيدينا سوى تلك الرسائل التي بعث بها إلى المسؤولين البريطانيين في طرابلس والتي نشرت في مجلة "Quarterly Review "[4].

2.4. رونييه كاييه René Caillié:

يعتبر أول المغامرين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء، انطلقت رحلته الأولى من فرنسا سنة 1816م على متن باخرة "لالوار" (La Loire) التي توجهت إلى السنغال، وقد استكشف منطقة توات عام 1828م في رحلته باتجاه تمبكتو التجارية مابين سنتي 1827 و1828م مدعياً للقبائل التي يمر بها في طريقه أنه مصري تربى في فرنسا منذ صغره، ويعتبر أول أوروبي

[1] محمدو بن محمذن، المرجع السابق، ص83.

[2] P. Vuillot, L'exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel, paris, 1895, P02.

[3] عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر- تونس- ليبيا من 1816 إلى 1871، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1972، ص263.

[4] اتيليو موري، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الايطالي، تع: خليفة محمد التليسي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، 1971م، ص ص38-39.

يزور مدينة تمبكتو، وقدَّم لفرنسا معلومات جغرافية وحضارية هامة عن المناطق التي مر بها[1]، حيث وصل يوم 20 أفريل 1828م إلى تمبوكتو ومكث بها 14 يوم[2]، ليغادرها يوم 04 ماي 1828م مع قافلة متجهة إلى إقليم مراكش فعبَرَ منطقة توات في شهر جويلية، ومنها توجه إلى فاس عبر تافيلالت، ثم دخل طنجة يوم 07 سبتمبر 1828م، ومنها توجه إلى طولون قبل نهاية السنة[3].

لما غادر كاييه تمبكتو متجهاً إلى طنجة مر مع قافلته بالطريق المار عبر منطقة توات التي دخلها في شهر جويلية[4]، فسجَّل ملاحظات وأنجز رسومات ومخططات عن المنطقة وقدّم للمصالح الفرنسية المختصة معلومات جغرافية وانتربولوجية هامة عن المنطقة ، حيث اعتبرت الجمعية الجغرافية الباريسية اكتشافه ذا قيمةً كبيرةً وانجازاً ضخماً فنال بذلك الجائزة الكبرى التي بلغت 10آلاف فرنك، لكن لم تقدم هذه الرحلة معلومات ذات أهمية حول توات باعتبار أنها كانت محطة عبور كما أنها لم تدم طويلاً.

3.4. لويس دو كلومب Louis De Colomeb:

مستكشف وضابط عسكري فرنسي، شغل منصب قائد أعلى على منطقة البيض بداية من سنة 1853م[5]، ثم قائداً أعلى بمنطقة الأغواط سنة 1860م، كُلِّف بعدة مهام عسكرية في الجنوب الجزائري. كانت بداية اهتمامه بالصحراء عام 1854م لما كان نقيباً في الجيش الفرنسي وقائداً لدائرة البيض، حيث كُلف ببعثة علمية عسكرية لاستكشاف منطقة حوض وادي الناموس، رافقه فيها الطبيب ماريس (Docterur Marès) الذي أسندت له مهمة جمع معلومات جيولوجية ومناخية، وتم أثناء هذه الرحلة استكشاف جنوب شرق المغرب من شط تيغري وصولاً إلى فقيق[6].

وفي سنة 1857م اهتم الضابط دو كولومب بالاستكشاف الفعلي للصحراء، حيث بدأ في مطلع شهر جانفي رحلة للجنوب الغربي الجزائري لاستكشاف قصور قورارة وتوات وتيدكلت[7]، بعدما أخذ الإذن من الجنرال "دوريو" (Durrieu) قائد شعبة معسكر، فاتصل بالخليفة "سي حمزة" زعيم أولاد سيدي الشيخ وبعض رجال الشعانبة ليستدل على الطريق الأسهل إلى الجنوب، واستغرقت الرحلة 45 يوماً وصل خلالها إلى قورارة وتوات الوسطى[8]، وكان الهدف منها التعرف على الواحات وطرق

---

[1] جوزفين كام، المستكشفون في إفريقيا، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص144.

[2] ELIKA MBokolo, Des Missionnaires aux Explorations, les Européens en Afrique, A.B.C, Paris, 1877, p62.

[3] محمدو بن محمذن، المرجع السابق، ص161.

[4] إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص47.

[5] Narcisse Faucon, Livre d'Or De L'Algerie, éditeurs Librairie Algérienne et Coloniale, Paris,1889, p160

[6] ناصر الدين سعيدوني ومعاوية سعيدوني، الصحراء الجزائرية من خلال التقارير الفرنسية في أواسط القرن التاسع عشر (نصوص مختارة مترجمة مع نبذ عن حياة ونشاط أصحابها)، البصائر الجديدة، الجزائر، ط1، 2019م، ص454.

[7] أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص385.

[8] Louis de Colombe, Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran, Imprimerie Du Gouvernement, Alger, 1858, P10.

القوافل التجارية، إذ اقترح دو كولومب أن يتم تأسيس مجموعة من المراكز التجارية على الجانب الشمالي من الصحراء إلى الأغواط والبيض الهدف منها ربط توات بهذه المراكز وإقامة نظام تجاري صحراوي[1].

4.4 فيكتور كولونيو Victor Colonieu:

مستكشف وقائد عسكري فرنسي، قام برحلة لاستكشاف الجنوب الغربي الجزائري في نوفمبر 1860م صحبت والملازم "بوران" (Borin)، بهدف إبرام علاقات تجارية مع سكان توات وقورارة للظفر بتجارة بلاد السودان[2]، رافقهم فيها "سي بوبكر" ابن الخليفة "سي حمزة" زعيم أولاد سيدي الشيخ، فانضما إلى القافلة السنوية التي تنطلق من دائرتي سعيدة والبيض لجلب التمور من قورارة مقابل بيع الحبوب والأغنام[3]، حيث اجتمعت عناصر هذه القافلة بالأبيض سيدي الشيخ، وضمت حوالي 2.200 رجل رجل و 1.400 امرأة وطفل، وأكثر من 10.000 جمل وحوالي 16.000 رأس من الغنم[4].

وقد شاع في الصحراء بأن فرنسا وجهت حملة عسكرية لاحتلال منطقة توات[5]، لذلك كانت أبواب القصور الجنوبية تغلق في وجه كولونيو حتى يبتعد عن أسوارها، وعند وصول القافلة إلى تيميمون مركز إقليم قورارة يوم 07 ديسمبر، فإن جماعة القصبة لم تفتح أبوابها للقافلة حتى ابتعد الضابطان الفرنسيان إلى مسافة مشي يومين على الأقل[6]، فغادرا إلى أوقروت وتاورسيت وتيمي، ليجدا نفس الاستقبال أينما حلا، لذلك قررا ألا يذهبا أكثر من ذلك فتراجعا إلى الشمال باتجاه واحة الأبيض سيدي الشيخ مطلع سنة 1861م[7].

وتجدر الإشارة إلى أن قافلة كولونيو تعتبر أضخم بعثة عسكرية فرنسية تصل منطقة توات في ذلك الوقت، فبالإضافة إلى العدد الكبير من الفرسان المسلحين، ضمت هذه القافلة عشرات الجمال المحملة بالبضائع والمؤن، ذلك أن الهدف المعلن للرحلة هو هدف تجاري.

5.4. جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs:

رحالة ومستكشف ألماني، انخرط في فرقة اللفيف الأجنبي الفرنسي التي كانت تعمل في الجزائر، كان حلمه أن يحصل على الجائزة التي أعلنت عنها الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1855م باكتشاف الطريق الرابط بين الجزائر والسنغال[8]، قام رولفس بأربع

---

[1] أندري برنانت، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: رابح اسطنبولي وعاشور منصف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص ص388-389.

[2] Vallat Gustave, A la Conquête du Continent Noir, Missions Militaires et Civiles de 1892 à 1900, Inclusivement, d'après des Documents Officiels, J. Lefort Imprimeur Editeur, Paris, 1901, p34.

[3] احميدة عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009م، ص69.

[4] Victor Colonieu, Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T13, Paris, 1892, p57.

[5] Vallat Gustave, op.cit, p36.

[6] إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934م، دار هومة، الجزائر، 2005م، ص413.

[7] p.Vuillot, op.cit, p 73.

[8]- جيرهارد رولفس، عبر إفريقيا، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، سبها، دت، ج01، ص19.

بأربع رحلات لاستكشاف الصحراء الجزائرية بين سنوات (1862- 1867م)[1]، تهمنا منها الرحلة الثالثة عام 1864م التي انطلق فيها من طنجة عبر تافيلالت ومنها وصل إلى وادي الساورة وبني عباس ثم واحات توات متنكراً في ملابس السكان الأصليين، مدعياً أنه طبيب تركي حيث دخلها في أوت 1864م رفقة إحدى القوافل[2].

اخترق رولفس توات من غربها إلى شرقها وكان أول قصر يدخله هو تسابيت يوم 13 أوت 1864م، ومر بالعديد من قصور توات الوسطى وتيدكلت التي دخل عاصمتها عين صالح يوم 17 سبتمبر[3]، وبقي بها شهراً ونصف، إلى أن أكتُشف أمره فاضطر للذهاب لطرابلس في رحلته الرابعة يوم 29 أكتوبر 1864م، وعاد بعدها إلى أوروبا.

تعد مذكرات رولفس وثيقة مهمة في التأريخ لمنطقة توات خلال القرن التاسع عشر حيث تُقدم معلومات غاية في الأهمية حول المنطقة، فقد نجح في اختراق الصحراء الكبرى من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية، ويكون بذلك أول رحالة أوروبي يصل إلى عين صالح ويقدم وصفاً للأوروبيين عنها يعتبر هو أول وصف عن المدينة يصل العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن التاسع عشر[4]، حيث أعدَّ تقارير استكشافية مفصلة حول الأوضاع الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنطقة، للمنطقة، وقد وجدت هذه التقارير تقييماً إيجابياً لدى الفرنسيين ما جعل الجمعية الجغرافية في باريس تمنحه الميدالية الذهبية[5].

6.4. بول صوليه paul solleillet:

من أشهر المستكشفين الفرنسيين، قام بعدة رحلات إلى إفريقيا بين سنوات (1871- 1878م) بطلب من السلطات الفرنسية، بين سنتي (1872- 1874م) قام برحلة من الجزائر العاصمة إلى عين صالح والتي تعتبر من أشهر رحلاته وكلفته بها المؤسسة العسكرية وغرفة التجارة لاستكشاف الطرق التجارية بين الجزائر وعين صالح[6]، إذ انطلق من مدينة الجزائر يوم 29 ديسمبر ديسمبر 1873م عبر طريق الجلفة والأغواط ودخل غرداية يوم 29 جانفي 1874م ثم توجه إلى ورقلة ثم إلى متليلي[7]، وفي يوم 16 فيفري بدأت رحلته من متليلي إلى عين صالح، وكانت بعثته تتكون من ستة وعشرين شخصاً وعشرة جمال وثلاثة خيول[8]، وفي وفي 06 مارس 1874م دخل قصر مليانة[9] لكنه استقبل استقبالاً غامضاً، فأرسل إلى الحاج عبد القادر باجودة رئيس واحة عين

[1] Gerhard Rohlfs, Meein erster Aufenthalt in Marokko und Reise studlich vom Atlas durchdie Oasen Draa und Tafilet ,Verlag von J.Kuhtmann's Buchhaudlung, Bremen, 1873, PP30-33.

[2] Louis Voinot, le Tidikelt étude sur la géographie l'histoire, les moeurs du pays, édition jacques gandini, Paris, 1908, p83.

[3] Bernard Saffroy, chronique du Touat, Centre de Documentation Saharienne, Ghardaia, p09.

[4] ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، تر: جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م، ص111.

[5] جيرهارد رولفس، رحلة إلى الكفرة، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2000م، ص29.

[6] Gros Jules, Paul Soleillet en Afrique, Maurice Drhyfous éditeur, Paris, 1888, pp7-10.

[7] p.Vuillot, op.cit, p126.

[8] إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص59.

[9] مليانة: قصر يتبع للساهلة يسكنه أهل عزي والزوى، يبعد عن عين صالح حوالي 10 كلم. أُنظر: الحاج التومي سعيدان، سكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس، دار هومة، الجزائر، 2005م، ص36.

صالح رسالة من الغرفة التجارية، فردَّ عليه أنه إذا لم يغادر تيدكلت بأقصى سرعة فستكون عقوبته الموت، فقفل عائداً إلى الجزائر ولم يستكمل رحلته[1].

رغم إن صوليه لم يسمح له بالدخول إلى عين صالح فقد قدم في كتابه عدة معلومات هامة حول المناطق الصحراوية التي استكشفها وحول هضبة تادمايت وما جاورها وتيدكلت، استفادت منها السلطات الفرنسية في احتلالها للجنوب الغربي وتوات خاصة، وكان بول صوليه يرغب في افتتاح وكالة تجارية بتوات.

7.4. مرسال بالات Marcel Palat:

ضابط فرنسي، اشتغل في الفرقة العسكرية لوهران ونظراً لحبه للغة العربية استطاع استيعابها، فعُين ملحقاً للمكتب العربي بسعيدة، كانت له رغبة كبيرة في استكشاف الصحراء، وفي سنة 1885م أرسلته فرنسا في حملة استكشافية للصحراء الجزائرية، انطلق في رحلته من مدينة الجزائر إلى قورارة وتوات التي دخلها سنة 1886م، وبعد تجوله في قصور قورارة مدة أربعين يوماً توجه بعدها إلى تيدكلت لاستكشاف عين صالح[2]، وفي الطريق تعرض للاغتيال بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1886م. وبذلك يكون بالات قد استكشف الطريق الرابط بين البيض وعين صالح، كما تعرف على مدن وقصور وواحات هذا الطريق، وعرف نوع النشاط التجاري الذي يتميز به، وأهم السلع والأسعار المتداولة بالمنطقة.

8.4. كاميي دولس Camille Douls:

مستكشف فرنسي، كان مهتماً بالعلوم الطبيعية واستكشاف إفريقيا، قام بعدة رحلات فيما بين 1887م و1889م باتجاه صحراء المغرب والصحراء الغربية جنوب المغرب الأقصى وصحراء الجزائر، وكان يسافر متنكراً في زي عربي[3]، في سنة 1887م أراد تكرار تجربة "بالات" (Palat) لاستكشاف الصحراء الجزائرية، فاستكشف منطقة تندوف في رحلته الأولى، فتحدث عنها ووصف أهلها[4]، وفي سنة 1888م كُلِّف بمهمة رسمية لربط مراكش بتمبكتو عن طريق توات وتافيلات[5]، فاخترق توات قادماً إليها من المغرب عبر وادي الساورة، في نفس الطريق الذي سلكه "رولفس" (Rohlfs)، فاستكشف واحة رقان، ثم توجه إلى أولف ومنها

---

[1] تفاصيل أكثر حول رحلة بول صوليه في المنطقة. أُنظر:

Paul Soleillet, Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah, Rapport de Chambre commerce d'Alger, Alger, 1875.

[2] Michel Antar, Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais, Collection Hetzel, Paris, 1907, p101.

[3] Jean Charles Humbert, Forts et Bordjs de l'Extrême Sud, Sahara, Algérie (1892-1903), Éditeur Calvisson, Paris, 1993, p91.

[4] Camille Douls, Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain, Bulletin de de la Société de géographie, 7 Série, T 9, Paris, 1888, pp437-455.

[5] Camille Douls, Voyage dans le Sahara Occidental et le Sud Marocain, Imprimerie de Espérance Cagniard, Rouen,1888, p42.

إلى أقبلي للانطلاق منها إلى تمبكتو، لكن في طريقه بين أولف وأقبلي تم اغتياله في فبراير 1889م من قبل رجلين من رجال التوارق، قبل أن يكمل مهمته[1].

5. العراقيل التي واجهت المستكشفين:

إذا كانت العوامل التي شجعت الاستكشاف الأوروبي للمنطقة كثيرة ومتنوعة؛ فإن العراقيل والصعاب التي واجهها المستكشفون وهم يحاولون الوصول إلى المنطقة كانت أكبر، فمنها ما هو طبيعي مرتبط بالموقع ومعالم السطح والمناخ القاسي، ومنها ما هو ثقافي بشري مرتبط بالدين واللغة مما جعل الكثير منهم يتظاهرون باعتناق الإسلام مدَّعين بأنهم من أصول عربية إسلامية.

1.5. العوائق الطبيعية:

إن اختراق المجال الصحراوي لمنطقة توات تصاحبه صعوبات طبيعية، أهمها ندرة المياه وقساوة المناخ، إذ تتجاوز درجة الحرارة الخمسين درجة في بعض الأحيان، بالإضافة إلى الرياح والعواصف الهوجاء، وصعوبة مسالك ودروب الصحراء، ومن جهة أخرى أن الأوروبيين لا يملكون البنية الجسمية القوية لمقاومة قساوة الصحراء وتقلبات المناخ، إضافة إلى قلة معلوماتهم عن الأمراض المنتشرة في المناطق الصحراوية، وكيفية الوقاية منها خاصة في ظل انعدام الأدوية المضادة لها، هذا ما جعلهم عرضة لمتعب صحية أثناء السفر في الصحراء مثل ما تعرض له المستكشف "لانج"[2]، كما أن الكثير من أولئك المستكشفين لقوا مصرعهم في أعماق الصحراء نتيجة التعب والإرهاق والمرض.

2.5. العوائق اللغوية:

مثلت اللغة عائقاً كبيراً أمام المستكشفين الأوروبيين الذين يجهلون اللغة العربية باعتبارها اللغة الأساسية للتعارف والتخاطب مع السكان التواتيين، فمنهم من مكث أياماً وأشهراً يتعلم اللغة العربية مثل ما فعل "كاييه" و"رولفس" و"بالات"، لكن لم يتقنوا الحديث بها جيداً مما أدى إلى انكشاف أمرهم في الكثير من المرات، ما جعلهم يدَّعون بأنهم من أصول تركية. وأما المبعوثين العسكريين فقد استعانوا بمترجمين مثل فعل "كولونيو" و"دو كولومب"[3]، لكن غالبية المترجمين لم يكونوا يتقنوا اللغة العربية جيداً، بل أن منهم من لم يكن يتقن حتى الفرنسية نفسها.

3.5. التنافس بين الدول الأوروبية حول الصحراء الإفريقية:

ظهر مع مطلع القرن التاسع عشر سباق وصراع خفي وعلني بين الدول الاستعمارية حول السيطرة على تجارة القوافل العابرة للصحراء خاصة بين إنجلترا وفرنسا، كما أن هذه الرحلات الاستكشافية تزامنت مع الصراع والسباق للاستحواذ على ثروات المستعمرات نتيجة للثورة الصناعية، هذا الصراع كان له أثر مباشر وغير مباشر على خطط وأهداف هؤلاء المستكشفين، مثل ما حدث مع المستكشف "لانج" الذي تعرض للقتل وسرقت أوراقه ومذكراته بعدما اجتاز منطقة توات نحو تمبكتو، فاتهمت إنجلترا

[1] Augustin Bernard et N. Lacroix, la Pénétration Saharienne (1830-1906), Imprimerie Algérienne, Alger, 1906, pp101-102.

[2] إبراهيم مياسي، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2010، ص81.

[3] إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص56.

السلطات الفرنسية بأنها هي من قتلته وسرقة أوراقه، مما أدى إلى حدوث أزمة سياسية بين الدولتين. ومن جهة أخرى فقد خلفت رحلة الألماني "رولفس" في منطقة توات والصحراء الإفريقية توجساً كبيراً لدى السلطات الفرنسية[1].

4.5. عدم توفر الأمن عبر الطرق:

عدم توفر الأمن والسلام على الطرق الرابطة بين مختلف المناطق التواتية، أو بين توات وغيرها من المنطق الصحراوية خلال فترة توافد المستكشفين كان من أهم العراقيل التي واجهت هؤلاء الأوروبيين وهم يجوبون المجال التواتي، وذلك لعدة أسباب منها: عدم وجود سلطة سياسية لها القدرة على توفير الأمن عبر هذه الطرق، بالإضافة إلى الصراع الموجود بين بعض القبائل، وكثرة قطاع الطرق في بعض المناطق، فقد تعرض الكثير من المستكشفين لعمليات النهب والسلب، وقتل بعضهم وهم يتجولون عبر القرى التواتية، فهذا المستكشف "صولييه" لما وصل عين صالح أرسل له قائدها "الحاج عبد القادر باجودة" رسالة يهدده فيها بأنه إذا لم يغادر فوراً فإن عقوبته ستكون الموت، فقل راجعاً بعد رحلة طويلة وشاقة قطعها للوصول إلى عين صالح[2]، كما أن الضابط "كولونيو" غُلقت في وجهه كل قصور إقليم توات، وهدد بالقتل في حالة مواصلة المسير، رغم أنه أعلن أن رحلته ذات طابع تجاري، ما جعله يتراجع ولم يكمل رحلته[3].

5.5. تأثير التعصب الديني:

النظرة الدينية المتعصبة للسكان المسلمين واجهت المستكشفين الأجانب بمختلف جنسياتهم، حيث أن التعصب الديني وكراهية الآخر لأسباب دينية لم يكن لدى التواتيين فقط؛ بل لدى كل سكان الصحراء، إذ يذكر جيمس ويللارد أن: "الإسلام كان يعلن بأن المسيحيين هم أبناء الشيطان"[4]، مما أدى بهؤلاء المسيحيين إلى التنكر وتظاهر اعتناق الإسلام وتعلم آيات من القران الكريم، واتخاذ أسماء محلية عربية، فقد غير العديد من المستكشفين أسمائهم وتنكروا بذي عربي مدَّعين بأنهم من أصول شرقية مثل "كاييه" و"رولفس" الذي سمى نفسه "الحاج مصطفى" مدعياً بأنه طبيب تركي. كما اغتيل العديد منهم من طرف السكان لما اكتشفوا حقيقتهم تعبيراً عن رفضهم لأي دخيل، مثل ما حدث لـ"بلات" سنة 1886م الذي قتل بين عين بلبال وعين صالح لكونه مسيحي، وهو نفس المصير الذي لقيه "دولس" سنة 1889م قرب أولف لنفس السبب[5].

6.5. قلة الوسائل المادية والمالية:

معلوم بأن وسيلة النقل في الصحراء خلال القرن التاسع عشر هي الجمال، ونتيجة عدم توفر الأمن فإنها لا تسير إلا في قوافل كبيرة في صحراء مليئة بالمخاطر الطبيعية والبشرية، ونظراً لعدم وجود قوافل دائمة السفر بين توات وغيرها من المناطق المجاورة لها، أو وجود قوافل تنطلق في فترات متقاربة (فعدد الرحلات لا يزيد عن قافلة أو اثنتين في السنة)؛ كل هذا جعل الكثير من المستكشفين

[1] جيرهارد رولفس، رحلة إلى الكفرة، المرجع السابق، ص43.

[2] Paul Soleillet, op.cit, p62.

[3] p.Vuillot, op.cit, p 73.

[4] جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.س، ص195.

[5] Augustin Bernard et N. Lacroix, op.cit, pp101-102.

ينتظرون القوافل السنوية لتنفيذ رحلاتهم الاستكشافية، فهذا "رولفس" مكث في عين صالح شهراً ونصف ينتظر قافلة سنوية للذهاب معها إلى تمبكتو حتى أصابه الملل والقلق من الانتظار ونفذ ما لديه من مال؛ فغيّر وجهته نحو غدامس. وإذا ما توفرت القافلة تظهر معضلة جديدة وهي إيجاد وسيلة نقل واستئجارها، حيث كان الأجانب محل استفزاز من طرف ملاك الجمال، وهو ما أعرب عنه "رولفس" بقوله: "الضريبة الأكثر ارتفاعاً هي الضريبة المطبقة على الأشخاص الغرباء... وقد توجب عليا أن أدفع أكثر من الثمن المعتاد والمتعارف عليه"[1].

لقد كان لهذه الصعوبات نتائج أثرت على نجاح أو فشل رحلات المستكشفين من كل الجوانب، فالعديد منهم مات بسبب المرض، أو من شدة التعب والإرهاق وحر الصحراء، ومنهم من اغتيل من قبل قبائل الصحراء لما اكتشفوا حقيقتهم تعبيراً عن رفضهم لأي دخيل.

6. خاتمة:

يمكننا أن نوجز أهم النتائج التي توصلنا إليها في مقالنا هذا فيما يلي:

– استهوت الصحراء الجزائرية ومنطقة توات خاصة المستكشفين والمغامرين الأوربيين وأسالت لعابهم، ولقد اختلفت دوافع الرحلات فمنها العام المرتبط بالتطورات الحاصلة في أوروبا مثل الثورة الصناعية وانعكاساتها وظهور الجمعيات وتنامي التوسع الاستعماري، ومنها الخاص المتعلق بالمستكشفين أنفسهم كالمغامرة وارتياد المجهول والبحث عن الثراء.

– كانت منطقة توات منذ مطلع القرن التاسع عشر محل اهتمام العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم، من أهمهم: الانجليزي غوردن لانج" (Gordon Laing)، والألماني "جيرهارد رولفس" (Gerhard Rohlfs)، والفرنسي "رونييه كاييه" (René Caillié).

– تزايد اهتمام فرنسا بمنطقة توات والصحراء الجزائرية عموماً بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م، فكثفت من إرسال البعثات العسكرية والعلمية منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر لاستكشاف المنطقة، وتعددت الجهات الفرنسية التي كانت تبعثهم، وتباينت دوافعها، ومن أهمها: بعثة الضابط "دو كلومب" (De Colomeb)، وبعثة القائد "كولونيو" (Colonieu)، وبول صولييه (paul solleillet).

– اصطدم المستكشفون الأوروبيون بالعديد من الصعوبات والمعيقات أثرت على نجاح أو فشل رحلاتهم من كل الجوانب، فالعديد منهم مات بسبب المرض، أو من شدة التعب والإرهاق وحر الصحراء، ومنهم من اغتيل من قبل قبائل الصحراء لما اكتشفوا حقيقتهم تعبيراً عن رفضهم لأي دخيل.

[1] Malte Brun V.A, rèsumè Historique et Gèographique de l'exploration de Gerhard Rohlfs Au touàt et a in-çàlah d'après le Journal de ce voyageur, Challamel Ainé Librairé éditeur, paris, 1866, p100.

7. قائمة المراجع:

. المراجع العربية:

- إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934م، دار هومة، الجزائر، 2005م.
- إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م.
- إبراهيم مياسي، قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2010.
- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- اتيليو موري، الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الايطالي، تع: خليفة محمد التليسي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ط1، 1971م.
- أحمد بوساحة، أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2002م.
- أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- 1902م، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، ط1، 1988م.
- احميدة عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009م.
- أندري برنانت، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: رابح اسطنبولي وعاشور منصف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
- أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
- إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة الاستكشافية في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- جوزفين كام، المستكشفون في إفريقيا، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983.
- جيرهارد رولفس، رحلة إلى الكفرة، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2000م.
- جيرهارد رولفس، عبر إفريقيا، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، سبها، دت.
- جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، د.س.
- الحاج التومي سعيدان، سكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس، دار هومة، الجزائر، 2005م.
- حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، 2003.
- ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، تر: جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م.
- الطاهر موساوي، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، رسالة ماجستير، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بشار، 2011/ 2012م.
- محمد حوتية، توات والأزواد خلال القرنين 12 هـ و 13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، الجزائر،2007.
- محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن 19م (قراءة في الرحلات الاستكشافية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001م.
- مولاي احمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تح: مولاي عبدالله الطاهري، د.ن، الجزائر، 2010.

– ناصر الدين سعيدوني ومعاوية سعيدوني، الصحراء الجزائرية من خلال التقارير الفرنسية في أواسط القرن التاسع عشر (نصوص مختارة مترجمة مع نبذ عن حياة ونشاط أصحابها)، البصائر الجديدة، الجزائر، ط1، 2019م.
– عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر– تونس– ليبيا من 1816 إلى 1871، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1972.
– عبد القادر مرجاني، السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مجاود، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2019/ 2020م.
– فرج محمود فرج، إقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
– يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1980م.

. المراجع الأجنبية:

- Augustin Bernard et N. Lacroix, la Pénétration Saharienne (1830-1906), Imprimerie Algérienne, Alger, 1906.
- Bernard Saffroy, chronique du Touat, Centre de Documentation Saharienne, Ghardaia.
- CAMBON Juiles, Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouestafricain LES OASIS DE L'EXTREME-SUD ALGERIEN, Paris, 1897.
- Camille Douls, Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain, Bulletin de la Société de géographie, 7 Série, T 9, Paris, 1888.
- Camille Douls, Voyage dans le Sahara Occidental et le Sud Marocain, Imprimerie de Espérance Cagniard, Rouen,1888.
- ELIKA M'Bokoto, Des Missionnaires aux Explorations, les Européens en Afrique, A.B.C, Paris, 1877.
- Jean Charles Humbert, Forts et Bordjs de l'Extrême Sud, Sahara, Algérie (1892-1903), Éditeur Calvisson, Paris, 1993.
- Gerhard Rohlfs, Meein erster Aufenthalt in Marokko und Reise studlich vom Atlas durchdie Oasen Draa und Tafilet, Verlag von J.Kuhtmann's Buchhaudlung, Bremen, 1873.
- Gros Jules, Paul Soleillet en Afrique, Maurice Drhyfous éditeur, Paris, 1888.
- Louis de Colombe, Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran, Imprimerie Du Gouvernement, Alger, 1858.
- Louis Voinot, le Tidikelt étude sur la géographie l'histoire, les moeurs du pays, édition jacques gandini, Paris, 1908.
- Malte Brun V.A, rèsumè Historique et Gèographique de l'exploration de Gerhard Rohlfs Au touàt et a in-çàlah d'après le Journal de ce voyageur, Challamel Ainé Librairé éditeur, paris, 1866.
- Martin A.G.P, Les oasis sahariennes, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger, 1908.
- Mario vivarer, Au Sujet du Touat, librairie Michel Ruff , Alger, 1896.
- Michel Antar, Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais, Collection Hetzel, Paris, 1907.
- Narcisse Faucon, Livre d'Or De L'Algerie, éditeurs Librairie Algérienne et Coloniale, Paris,1889.

- Paul Soleillet, Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah, Rapport de Chambre commerce d'Alger, Alger, 1875.
- P. Vuillot, L'exploration du Sahara étude historique et géographique, Augustin Challamel, paris, 1895.
- Vallat Gustave, A la Conquête du Continent Noir, Missions Militaires et Civiles de 1892 à 1900, Inclusivement, d'après des Documents Officiels, J. Lefort Imprimeur Editeur, Paris, 1901.
- Victor Colonieu, Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T13, Paris, 1892.